الجهة الفوقية بين المثبتين والنافين(تحليل ونقد)

م.م. أُسامة برهان الدين محمد حسام الدين

ماجستير في العقيدة والفلسفة الإسلامية /كلية العلوم الإسلامية العالمية / الأردن
إمام وخطيب جامع الشيخ حسام الدين / كركوك
محاضر في كلية الإمام الأعظم وكلية القلم الجامعة

المقدمة

لما كانت جهة الفوقية من الصفات الخبرية عند من يثبتونها ولما كان الأخبار بهذا أما في القرآن الكريم أو السنة المطهرة حسب ما يعتقدون فإن هذا يستدعي إن نذكر في هذه التقدمة طرفاً مما قاله العلماء في المحكم والمتشابه حيث إن هذا الأخير فيه تقع دائرة تلك الاخبارات، وكذلك مسألة التأويل بين المانعين والمجوزين .

ونوضح هذا – بمشيئته تعالى – كما يلي :-

أولاً : المحكم والمتشابه

المحكم لغة: جاء من الأحكام بمعنى المنع ، يقال : أحكمت وحكمت بمعنى منعت .

والمتشابه لغةً : من التشابه وهو أن يكون أحد الشيئين مشابهاً للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز بينهما ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ [1] ، وقد يكون التشابه بمعنى التماثل، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[2] [3].

واصطلاحاً : تعددت الأقاويل في تعريفهما وقبل أن يذكر الإمام الرازي تعريفه قال: "الناس قد أكثروا من الوجوه في تفسير المحكم والمتشابه، ونحن نذكر الوجه الملخص الذي عليه أكثر المحققين .. فنقول : اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعنى فأما أن يكون محتملاً لغير ذلك المعنى، وأما أن لا يكون ، فإذا كان اللفظ موضوعاً لمعنى، ولا يكون محتملاً لغيره فهذا هو النص، وإن كان محتملاً لغيره فلا يخلو أما أن يكون احتماله لأحدهما راجحاً على الآخر وأما أن لا يكون كذلك بل يكون احتماله لهما على السواء ، فإن كان احتماله لأحدهما راجحاً على الآخر، سمي ذلك اللفظ بالنسبة إلى الراجح ظاهراً، وبالنسبة إلى المرجوح مؤولاً ، وأما أن كان احتماله لهما على السوية كان اللفظ بالنسبة إليهما معاً مشتركاً ، وبالنسبة إلى كل واحد منهما على التعيين مجملاً فقد خرج من التقسيم الذي ذكرناه إن اللفظ أما أن يكون نصاً ، أو ظاهراً ، أو مؤولاً ، أو مشتركاً ، أو مجملاً .

أما النص والظاهر فيشتركان في حصول الترجيح ألا إن النص راجح مانع من الغير والظاهر راجح غير مانع من الغير، فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمحكم، وأما المجمل والمؤول فهما مشتركان في إن دلالة اللفظ غير راجحة وإن لم يكن راجحاً لكنه غير مرجوح، والمؤول مع إنه غير راجح لا بحسب الدليل المنفرد فهذا القدر المشترك هو المسمى بالمتشابه(٤) .

ثم كأني بالإمام الرازي يستشعر بعض الغموض فيما قال: فرع إليه يوضحه في إجمال قائلاً : " اللفظ إذا كان محتملاً لمعنيين، وكان بالنسبة إلى أحدهما راجحاً ، وبالنسبة إلى الآخر مرجوحاً ، فإن حملناه على الراجح، ولم نحمله على المرجوح، فهذا هو الحكم وأما إن حملناه على المرجوح، ولم نحمله على الراجح فهذا هو المتشابه " ، فكلام الرازي هنا مبني على أمري الراجح والمرجوح .

والعلامة الزرقاني استعرض تعريفات الأئمة في المحكم والمتشابه ثم قال:

" بيد إن رأي الرازي أهداها سبيلاً ، وأوضحها بياناً ؛ لأن أمر الأحكام والتشابه يرجع – فيما نفهم – إلى وضوح المعنى المراد للشارع من كلامه وإلى عدم وضوحه ،

وتعريف الرازي جامع مانع من هذه الناحية لا يدخل في المحكم ما كان خفياً، ولا في المتشابه ما كان جلياً ؛ لأنه استوفى وجوه الظهور والخفاء استيفاءاً تاماً في بيان تقسيمه الذي بيناه على الراجح والمرجوح والذي أعلن لنا منه إن الراجح ما كان واضحاً لا خفاء فيه وإن المرجوح ما كان خفياً لا جلاء معه "[٥] .

والإمام الثعالبي[٦] يعرف المحكم والمتشابه بقوله: " المحكمات المفصلات المبينات الثابتات الأحكام، والمتشابهات هي التي تحتاج إلى نظر وتأويل ويظهر فيها ببادي النظر أما تعارض مع أخرى، وأما مع العقل إلى غير ذلك من أنواع التشابه، فهذا الشبه الذي من اجله توصف بمتشابهات إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظنها الزيغ ومن لم يمعن النظر "[٧].

ونلاحظ هنا إن الإمام الثعالبي ذكر نوعين من المتشابه :

الأول: ما يدل اللفظ فيه على شيء والعقل على خلافه ، كقوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[٨] ، وكل ما شابه هذا .

الثاني: الآيات التي يوهم ظاهرها تعارضاً وهي المسماة عند علماء التفسير بالمشكل كقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [٩]، وقوله تعالى:﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [١٠] ، والذي قيل فيه : إن يوم القيامة مواطن.

وهكذا يجعل الإمام الثعالبي المشكل من المتشابه وهذا نفسه هو ما ذكره ابن قتيبة عندما قال " ومثل المتشابه المشكل، وسمى مشكلا؛ لأنه أشكل أي دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله "[١١] .

ألا إن الإمام السيوطي رفض هذا وفرق بينهما وقال : بأن المتشابه لا يفهم معناه والمراد منه، والمشكل يفهم بالجمع " [١٢] ، وطبيعي إن مقصد السيوطي إنه لا يفهم معناه والمراد منه، إلا بتأويل .

تنبيه:

لقد جاء في القران الكريم ما يدل على إنه كله محكم كقوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ﴾[١٣] ، وجاء في القرآن الكريم ما يدل على انه كله متشابه كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ﴾ [١٤] .

كما جاء فيه ما يدل على إن بعضه محكم ، وبعضه متشابه كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ ﴾[١٥].

ويجيب الإمام الزرقاني بأنه لا معارضة بين هذه الآيات؛ لأن معنى كونه محكما أي إنه كلام فصيح متقن لا يتطرق إليه خلل لفظي ولا معنوي. ومعنى كونه كله متشابها ، انه يشبه بعضه في أحكام وحسنه وإتقانه ويصدق بعضه بعضا وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ [١٦]، وأما ما دل على إن بعضه محكم وبعضه متشابه فمعناه إن من القرآن ما اتضحت دلالته ومنه ما خفيت دلالته[١٧] .

ثانيا: الحكمة من مجيئ المتشابهات في القرآن الكريم .

بنص القرآن الكريم صار معلوما للخاصة والعامة أن الله أنزل في القرآن الكريم آيات متشابهات، كما ورد في السنة المطهرة كذلك أحاديث تحمل هذا الطابع، وما يقال في تلمس الحكمة من مجيء المتشابهات في القرآن ينسحب كذلك على ما جاء في أحاديثه ﷺ .

ومما قيل في هذا ما يلي:

١.يحث العلماء على النظر في كتاب الله تعالى، والبحث عن المعاني الدقيقة، لذلك قال الله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾[١٨] ، فمن رحمته إن جعل في القرآن مجالا للعقل حتى لا يكل فيموت؛ لأن السهل الواضح لا عمل للعقل فيه، وعندما

يبحث العالم في المتشابه يضطره ذلك إلى البحث في الأدلة الكونية، والبراهين العقلية، واللغة، والنحو، وأصول الفقه، مما يعنه على النظر والاستدلال، فوجود المتشابه في القرآن الكريم إذن سبب في تحصي العلوم الكثيرة، وسبيل إلى التخلص من ظلمة التقليد[١٨] ، وعليه فإن المتشابه باب من أبواب البحث العقلي الذي يثري الحياة العلمية في الإسلام.

٢.إظهار فضل العالم على الجاهل، فمتى وجدت المتشابهات في القرآن كان الوصول إلى الحق أصعب واشق، وزيادة المشقة توجب زيادة الأجر والثواب [١٩]، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٢٠]، ومعلوم كذلك إن الله يقول: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢١] ، كما لا يقول النبي ﷺ: (من يرد الله به خيرا يفقه في الدين)[٢٢]، كما يقول (العلماء هم ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن اخذ به اخذ بحظ وافر)[٢٣]، ولا يفوتنا أن نبين إن العبارة الواردة هنا في كلام الرازي وهي : " توجب زيادة الأجرة والثواب " الأولى أن يقال فيها العبارة الواردة هنا في كلام الرازي وهي: " توجب زيادة الأجر والثواب " الأولى أن يقال فيها طريق إلى الأجرة والثواب ، فالله سبحانه لا يجب عليه شيء وإثابة العباد معلوم إنها بفضله لا بعد له .

٣.لو كان القران محكما بالكلية لما كان لمذهب واحد وكان مبطلا لكل ما سوى ذلك المذهب وذلك مما ينفر أرباب المذاهب عن قوله، وعن النظر فيه فالانتفاخ به إنما حصل لما كان مشتملا على المحكم وعلى المتشابه فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوى مذهبه ويؤثر مقالته؛ فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب أن يجد فيه ما يقوي مذهبه ويؤثر مقالته فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب المذاهب ويجتهد في التأمل كل صاحب مذهب فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات فبهذا الطريق يتخلص المبطل من باطله ويصل إلى الحق [٢٤]. ألا إن هذا الكلام لم يرق للسيد محمد رشيد رضا فقال عن الإمام الرازي : " لا ادري كيف أجاز له عقله أن يقول :

إن القران جاء بالمتشابهات ليستميل أهل المذاهب إلى النظر فيه، وان هذا طريق إلى الحق ! أين كانت هذه المذاهب عند نزوله؟ ومن اهتدى من أهليها بهذه الطريقة ؟ " [٢٥]، ونرى إن كلام رشيد رضا في هذا المقام فيه نوع من التحامل على الإمام الرازي لا يخفى على المتأمل ، ذلك إن مفاد كلام الرازي إن المتشابه يستدعي أرباب المذاهب إلى النظر والبحث والتدقيق، وقد كان وكون مثل هذا لم يكن موجودا في عصر النبي ﷺ ، فقد صار واقعا عمليا بعده فعكفت فرق كثيرة على القران تستقي منه أصول أرائها واتجاهاتها .

ولا شك إن صاحب المذهب الباطل الحائر الذي التبس عليه الأمر والواقع في الشبهات عندما يبحث في القران فانه سيجد الدليل القوي لإزالة ما عنده من شبه والتباسات بشرط أن ينظر في المتشابه بإمعان النظر وإخلاص النية ، أما صاحب المذهب الباطل الذي لا يبغي إلا الفتنة بدافع الحقد والمكابرة؛ فذلك لا يزيده النظر في المتشابهات إلا ضلالا.

الفصل الأول

تأويل المتشابه بين المانعين والمجوزين

المبحث الأول

معنى التأويل

التأويل لغة من الأول وهو الرجوع، يقال أول إليه الشيء أي: رجعه إليه واصله من المآل وهو المرجع والمصير، وقيل من الايالة وهي السياسة ، فكان المؤول يسوس الكلام ويضع المعنى في موضعه [٢٦] .

والتأويل في الاصطلاح على ثلاثة معان :

المعنى الأول: التأويل بمعنى التفسير وهذا ما عناه ابن جرير الطبري في تفسير – ملا – وقت إن قال: القول في تأويل قوله تعالى كذا ... وقوله : اختلف أهل التأويل

في تفسيره هذه الآية [٢٧].

المعنى الثاني: التأويل بمعنى الحقيقة التي يؤول إليه الكلام، فمثلا تأويل الخبر، وعين المخبر ركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك الله اغفر لي. يتأول القرآن " [٢٨] ، وطبيعي هنا إنها – رضي الله عنها – تعني بهذا قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾[٢٩].

وابن تيمية – رحمه الله – يعتبر إن هذا المعنى لغة القرآن التي نزل بها، بعد إن ذكر مواضيع التأويل مفصلة في سبع من سور القرآن ووجه كل موضوع قال عقب هذا: " فتبين من هذه الآيات إن لفظ التأويل لم يرد في القرآن إلا بمعنى الأمر العملي الذي يقع في المال تصديقا لخبر أو لرؤية أو لعمل غامض يقصد به شيء في المستقبل ، فيجب أن تفسر أية آل عمران كذلك " [٣٠] ، وبناءا على هذا، فان ابن تيمية لا يمنع التأويل؛ ولكنه يفهمه بمعنى خاص وهو الحقيقة التي تؤول إليها الأمور، ويكشف لنا هذا السر في وقوفه على قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾، بالعطف على ما قبلها، وعليه فأن هذا يعلمه الله ويهب علمه للراسخين في العلم إن شاء.

المعنى الثالث: التأويل في الكلام المتأخرين من الفقهاء، والمتكلمين، والمتصوفين، هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى احتمال المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسألة الصفات، فمنهم من ذم التأويل ومنهم من مدحه وأوجبه[٣١].

المبحث الثاني

أدلة مانعي تأويل المتشابه ومناقشتها

أن هناك فريقا من العلماء يذهبون إلى القول بأن المتشابهات من الأمور التي استأثر الله بعلمها ومن ثم فإن تأويلها لا يجوز .

ويقول الإمام الخطابي في هذا : " مذهب أكثر العلماء أن الوقف التام في هذه الآية – يقصد أية سورة آل عمران – على لفظ الجلالة (الله) وان ما بعده وهو قوله تعالى:﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾، استئناف روي ذلك عن ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وابن عباس، وعائشة " [٣٢] .

ولأصحاب هذا الاتجاه أدلة نقررها ثم نناقشها كما يلي :

أولا: قال عروة بن الزبير بن العوام – رضي الله عنه – : " إن الراسخين لا يعلمون تأويله ولكنهم يقولون إنا أمنا به " . وقال أبو نهيك الاسدي : " إنكم تصلون هذه الآية وإنها مقطوعة، وما انتهى علم الراسخين ألا إلى قولهم: (أمنا به كل من عند ربنا)[٣٣].

كما يقول الإمام الرازي : " لو كان قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ معطوفا على قوله (إلا الله) لصار قوله (يقولون) ابتداء وهذا بعيد عن ذوق الفصاحة " [٣٤] ويقول القرطبي في هذا كذلك : " وعامة أهل اللغة ينكرونه ويتعبدونه " .

الرد على هذا :

إن الإمام بن تيمية يقف على (والراسخون في العلم) كما بيناه منذ قليل، وكما صرح به كذلك في رسالته " التدمرية " .

وأيضا فان الله – سبحانه وتعالى – اثبت للراسخين في العلم فضيلة وصفهم بالرسوخ؛ لأن المحكم يستوي في علمه جميع من يفهم الكلام فلو كان الرسوخ مبتدأ وجملة (يقولون أمنا به) خبرا لم يكن للراسخين فضل على غيرهم من العوام[٣٥] ، وهذا بناء على إن جملة (أمنا به) يستوي في قولها عامة المسلمين وخاصتهم .

ويعضد هذا ما يذكره ابن عطية كذلك في قوله :

" فتسميتهم راسخين يقتضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم في الكلام، وفي أي شيء رسوخهم إذا لم يعملوا إلا ما يعلم الجميع؟ وما الرسوخ إلا المعرفة بتصاريف الكلام وموارد ومواقع المواعظ وذلك كله بقريحة معدة [٣٦] ".

أما الرد اللغوي فقيل فيه:

أن (يقولون) ها هنا في معنى الحال كأنه قال : والراسخون في العلم قائلين أمنا به ، كما قال الشاعر:

الريح تبكي شجوها .....والرق يلمع في غمامه

أراد والبرق لامعا في غمامه تبكي الريح شجوه ، أيضا ولو لم يكن البرق يشرك الريح في البكاء لم يكن لذكر البرق ولمعه معنى .

وقالوا : " المعنى يعلمون ويقولون فحذف واو العطف كقوله تعالى: { وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة }[٣٧*٣٨]

ثانيا: يقول الرازي: إن ما قبل هذه الآية يدل على إن طلب تأويل المتشابه مذموم حيث قال: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ ، كان طلب تأويل المتشابه جائزا لما ذم الله تعالى ذلك [٣٩] ، (الأولى أن يقال : لقد جاء في هذه الآية ما يدل على إن طلب .. الخ ؛ لأن ما ذكره في نفس وليس في آية قبلها).

ثالثا: اخرج الدارمي[٤٠] في سننه " عن سليمان بن يسار – مولى ميمونة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ – إن رجلا يقال له صبيغ[٤١] قدم المدينة فجعل يسأل متشابه القران فأرسل إليه عمر وقد اعد له عراجين النخل فقال من أنت ؟ قال: عبد الله بن صبيغ فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى ادمي رأسه .. ثم تركه حتى برا ثم عاد ، ثم تركه حتى برا فدعا به ليعود فقال: إن كنت تريد قتلي قتلا جميلا ، فأذن له إلى ارضه وكتب إلى أبي موسى الأشعري: لا يجالسه احد من المسلمين " ،

والإمام القرطبي في تفسيره ذكر هذه القصة ثم قال : " أن الله تعالى الهمة التوبة وقذفها في قلبه فتاب وحسنت توبته " [٤٢].

رابعا: عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذي سمى الله فاحذرهم[٤٣].

الرد: سبق وناقشنا الدليل الأول .

أما ما ذكرناه بعده وهو ثلاثة أدلة فإنا نحيل الرد عليها إلى ما يقوله الأمام بن تيمية كما يلي :

" أما ذم أهل الزيغ فلأنهم يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله على غير وجهه الصحيح فتأويل هنا لم يقصد به الوصول إلى الحق بل لتطويع أي: الذكر الحكيم حسب مرادهم ليوافق ما عندهم من زيغ وضلال وهوى ، فهؤلاء بدلا من أن يجعلوا القرآن إماما جعلوه مأموما، وبدلا من أن يكون متبوعا صار تابعا ، لذلك ضرب عمر – رضي الله عنه – صبيغ بن عسل، لان قصده بالسؤال عن المتشابه كان لابتغاء الفتنة وهؤلاء هم الذين عناهم النبي ﷺ بقوله: (إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فاحذروهم)[٤٤]، وأما من سأل عن معنى المتشابه ليعرفه، ويزيل ما عرض له من الشبهة وهو عالم بالمحكم متبع له مؤمن بالمتشابه لا يقصد فتنة فهذا لم يذمه الله تعالى" [٤٥] .

وهكذا شيئا فشيئا تتضح الرؤية إلى ما عند الإمام ابن تيمية إزاء قضية المتشابه والتأويل .

إن الذي بيناه الآن إنما هو من أهم وأبرز ما عند مانعي تأويل المتشابه من أدلة.

المبحث الثالث

أدلة القائلين بجواز تأويل المتشابه

إن القائلين بجواز تأويل المتشابه يقولون إن قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾، معطوف على لفظ الجلالة قبله .

ومن هنا فإن طبيعة الوقف في هذه الآية الكريمة يعد بحق انطلاقة كل من المانعين، والمجوزين لتأويل المتشابه على السواء.

وممن يقول بالعطف المذكور جهابذة من علماء الأمة، منهم عبد الله بن عباس، ونلفت النظر إلى ابن عباس الباحث في أمور كثيرة عقدية، أو فقهية أن يروي عنه الرأي، والرأي الأخر في المسألة الواحدة و مجاهد[٤٦]، ورجحه كل من ابن فورك[٤٧] والغزالي، ويذكر النووي في شرح مسلم أنه الأصح، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته و قال ابن الحاجب[٤٨] : إنه الظاهر.[٤٩]

ولهذا الفريق أدلتهم كما يلي:

١. عن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال " أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله " و عن مجاهد أيضا أنه قال : " والراسخون في العلم ويعلمون تأويله و يقولون أمنا به"[٥٠].

٢. ثبت في الصحيحين عن ابن عباس إن النبي (ﷺ) دعا له وقال: " اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل "[٥١]. وفهم معنى التأويل هنا يوضحه ما قبله كما هو واضح.

٣. ويقول ابن تيمية: " ثبت إن الصحابة والمفسرين قد تكلموا في جميع القرآن "، قال مجاهد: " عرضت المصحف على ابن العباس من أو له إلى أخره أوقفه عند كل أية واسأله عنه " ... كما قال أبو عبد الرحمن السلمي [٥٢]. حدثنا الذي كانوا يقرؤوننا القران: عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما إنهم كانوا إذا

تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا فتعلمنا القرآن والعمل جميعا "[٥٣].

٤. كما يقول الإمام ابن تيمية كذلك بأن هذا القرآن بيان، وهدى، وشفاء، ونور، وأمرنا بتدبيره: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[٥٤] ، ولم يستثن منه شيئا لا يتدبره ولا قال: لا تتدبروا المتشابه ، والتدبر بدون فهم ممتنع[٥٥] .

٥.يقول ابن تيمية : " ولسنا ممن يزعم إن المتشابه في القرآن لا يعلمه الراسخون في العلم ولم ينزل الله شيئا من القرآن إلا لينفع به عباده ويدل به على معنى أراده ثم قال بعد ما ذكر الأدلة على هذا : " فلم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القرآن فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله، بل أمره كل على التفسير حتى فسروا الحروف المقطعة في أوائل السور " [٥٦]

٦. لا يسوغ لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يعلم المتشابه ، فإذا جاز أن يعرفه الرسول ﷺ مع قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته، والمفسرين من أمته [٥٧] .

٧. يقول القاضي عبد الجبار: ويبين ذلك – أي مذهب التأويل – قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾، فكيف صح في المحكم أن يكون أصلا للمتشابه وليس له معنى يستدل بالمتشابه عليه، فلابد من أن يكون له تأويل يدل عليه المحكم، ولا يكون كذلك إلا على ما قلناه " [٥٨]، وبهذا يعلم واضحا إن التأويل جائز ليس هذا فحسب بل كما يقول الإمام الرازي : " وقد علمنا في الجملة إن استعمال اللفظ في معناه المرجوح جائز عند تعذر حمله على ظاهره فعند هذا يتعين التأويل[٥٩].

تنبيه :

إذا كان التأويل جائزا كما تقرر من خلال ما بيناه من أدلة ألا إنه ليس على

إطلاقه فان الناظر يدرك إن التأويل على قسمين :-

أولهما: مقبول ممدوح ويشترط فيه لكي يكون كذلك :-

١- أن يكون موافقا للكتاب والسنة، وان يكون جاريا على موافقة كلام العرب ومراعي لشروط التفسير.

٢- أن يبين المأول احتمال اللفظ للمعنى الذي حمله عليه وادعى أنه المراد.

٣. أن يبين الدليل الذي أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المعنى المرجوح وإلا كان التأويل فاسدا، ومثال هذا قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٦٠] ٤

فإنه يستحيل حمل المعية على القرب بالذات فتعين صرفها عن ذلك وحملها على الحفظ، والرعاية، والعلم، والقدرة، والرؤية.

ثانيهما: تأويل مرفوض مذموم خال من الشروط المذكورة آنفا، ومثال هذا ما هو مشهور عن الروافض، في تأويل قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ [٦١] بأنهما علي وفاطمة، وقوله تعالى:﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾[٦٢] بأنهما الحسن والحسين.

المبحث الرابع

ابن تيمية من أنصار التأويل

لم أستطيع إنهاء هذا الجانب من الموضوع قبل أن اكتشف الستار أكثر وأكثر عن مذهب ومعتقد الإمام ابن تيمية في هذا المقام ذلك؛ لأنه رائد من رواد هذا المذاهب السلفي، وإمام له قدره من أئمته، وعندما يعرف موقفه من التأويل تسقط دعاوي أولئك النفر الذين يدعون الانتماء إلى السلفية لا سيما إلى الإمام أبن تيمية، ثم ينكر التأويل وينكر أهله، فبعقل متفتح وبفكر رائد متزن أراد ابن تيمية أن يجمع، ويوفق بين المانعين

لتأويل، وبين المجوزين على جهتين، ولا يسعنا إلا أن نترك المجال طويلا فيحدثنا ابن تيمية بكل ما عنده في هذه المسألة ليقول:

" أن الذين يقولون " بالوقف على قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾، استئنافا أنما عنوا بذلك التأويل بالمعنى الثاني أي: الحقيقة التي يؤول إليها الكلام فحقيقة ذات الله وكنهها وكيفية أسمائه وصفاته وحقيقة المعاد لا يعلمها إلا الله وحده "

ونحن نقول مع ابن تيمية ومعهم: تلك حقائق لا يعرف كنهها إلا الله لا يتنازع في هذا سلف ولا خلف .

ويواصل الإمام كلامه، فيقول:

"والذين يقولون: بالوقوف على قوله تعالى: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ ﴾ على أن الواو للعطف وليست للاستئناف إنما بذلك التأويل بالمعنى الأول أي: التفسير "[٦٣]، ثم قال عن التأويل جملة، فمنهم ذم التأويل، ومنهم من مدحه وأوجبه.

ثم اختار مذهبه في أن الراسخين يعلمون التأويل بمعنى التفسير و صرح فيما سبق و كما سيأتي بأن هذا التفسير وبيان معنى المتشابه يكاد أمرا حتميا.

وهذا هو الذي يعنينا بيانه؛ لأن ما فعله أهل السنة من ألاشاعرة، وماتريدية إنما بيان لمعنى تلك الآيات المتشابهات أمام القائلين: لها معاني لا نعلمها واستأثر الله بعلمها، ولا تخوض فيها ولا نفسر وهو ما لم يوافقه ابن تيمية بل وقف ضده ونقده.

ويواصل ابن تيمية كلامه الذي ذكرنا من قبل طرفا منه فيقول:

" هل يكون في القرآن ما لا يفهمه أحد من الناس بل ولا الرسول ﷺ عند من يجعل التأويل هو معنى الآية ويقول: إنه لا يعلمه إلا الله فيلزم أن يكون في القرآن كلام لا يفهمه الرسول ﷺ ولا أحد من الأئمة بل جبريل، هذا الذي يلزم على قول من يجعل معاني هذه الآيات لم يفهمه أحد من الناس "[٦٤].

ويقول في موضع آخر: " فمن قال عن جبريل ومحمد ﷺ وعن الصحابة، والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين، والجماعة إنهم كانوا لا يعرفون شيئا من معاني هذه الآيات بل استأثر الله بعلم معناها كما استأثر بعلم وقت الساعة وإنما كانوا يقرؤون ألفاظا لا يفهمون لها معنى كما يقرا الإنسان كلاما لا يفهم منه شيئا فقد كذب على القوم " والنقول المتواترة عنهم تدل على نقيض هذا، وإنهم كانوا يفهمون هذا كما يفهمون غيره من القرآن، وإن كان كنه الرب – عز وجل – ولا يحيط به العباد يحصون ثناء عليه فذلك لا يمنع أن يعلمون من أسمائه وصفاته ما علمهم – سبحان وتعالى – كما أنهم إذا علموا أنه بكل شيء عليهم، وإنه على كل شيء قدير لم يلزم إن يعرفوا كيفية علمه وقدرته إذا عرفوا أنه حق موجود لم يلزم أن يعرفوا كيفية ذاته، وهذا مما يستدل به على إن الراسخين في العلم يعلمون التأويل فإن الناس متفقون على أنهم يعرفون تأويل المحكم ومعلوم أنهم لا يعرفون كيفية ما أخبر الله به عن نفسه في الآيات المحكمات فدل ذلك على إن عدم العلم بالكيفية لا ينفي العلم بالتأويل الذي هو تفسير الكلام وبيان معناه "[٦٥]

ويقول في موضع آخر كذلك:

" وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه بل يثبتون المعنى، وينفون الكيفية كقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ كيف استوى؟ فقال: الاستواء معلوم ، والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"[٦٦]

إن ابن تيمية عندما ساق هذا السؤال وأجابه الإمام مالك عليه في مقامه هذا نبهنا إلى شيء هام وهو: أن مانعي التأويل يستخدمون هذه الرواية في باب منع التأويل بينما عند التأمل يدرك إنها في باب تأكيد التأويل الذي يفتح الباب لفهم المعنى ولتدبره تأمله، فالإمام مالك قال: الاستواء معلوم، ثم تأتي المرحلة الثانية هذا العلم هل يتمشى

مع صفة البارئ أم يحتاج لمعنى تأويل يتعين بيانه، و يأتي متواكبا مع الحافظ على قاعدة إن الكيف مجهول.

أما بدعية السؤال عن هذا فكما سبق بيانه عند ابن تيمية نفسه إنما يكون عند من يبغون الفتنة والزيغ والضلال لا عند من يبغون المعرفة والعلم.

المبحث الخامس

كبار علماء السلف يؤولون

بالرغم مما نجده في المدرسة السلفية من الحظر على التأويل ونبذ أهله الأمر الذي أظنه لم تعد له وجاهة بعدما قدمنا ما سلف، فإنا نجد أن كبار رجال السلف يؤولون، وذلك في مواقف لا مناص من التأويل فيها وأخرى تحتم العقيدة الصحيحة صرف اللفظ عن معناه الظاهر فيها الأمر الذي معه تصير قاعدة منحرفة غير مضطرة، وأمثلة هذا كما يلي:

١.عند قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٦٧]، اتفاق من أهل السنة مشهور معلوم على إن المعية لا تحمل على عين الذات وإنما على السمع أو البصر أو القدرة .

٢.وفي الحديث الصحيح: (لما خلق الله الرحم تعلقت بحقوي[٦٨] الرحمن [٦٩]) يقول الإمام الخطابي: لا اعلم احد من العلماء حمل الحق، وعلى ظاهر مقتضاه في اللغة، وإنما معناه اللياذ والاعتصام "[٧٠]

٣.الإمام احمد بن حنبل – رحمه الله – " عند قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[٧١] ، يؤولها بمعنى وجاء أمر ربك كما قال: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [٧٢]"[٧٣].

٤.الإمام ابن تيمية – رحمه الله – يروي عن جعفر الصادق انه عند قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [٧٤] أول الوجه بمعنى الذات، كما روى عن

الضحاك إنه أول الوجه بمعنى ذات الله ... وأوله ابن تيمية نفسه بمعنى الجهة ورجح هذا وقرر إن المعنى هو: كل شيء هالك إلا ما أريد به جهة الله ، ثم قال: " وهكذا قال الجمهور السلف "[٧٥]، وتأويل ابن تيمية هذا يؤيده قوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ ﴾[٧٦].

٥.والإمام الشافعي – رحمه الله – عند قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾ [٧٧] يؤولها قائلا: فثم الوجه الذي وجهكم إليه "[٧٨].

٦.وحماد بن زيد الذي يقول فيه الإمام بن احمد حنبل : " هو من أئمة المسلمين من اهل الدين وهو أحب إلي من حماد بن سلمة" [٧٩] ، عند قول النبي صلى الله عليه وسلم ينزل ربنا – تبارك وتعالى – إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعوني فاستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فاغفر له ؟ [٨٠] يؤول حماد – رحمه الله – النزول بمعنى إقباله – جل وعلا – عباده[٨١].

٧.والإمام البخاري ـ رضي الله عنه ـ عند قول النبي ﷺ: (لقد ضحك الله الليل من فعالكما)[٨٢] ، في حديث طويل ذكر قصة الأنصار الذي أكرم مثوى ضيف رسول الله ﷺ و بات هو و زوجته طاويين (بغير طعام) ، أول البخاري الضحك بمعنى الرحمة[٨٣].

هكذا تسقط في ساحة هذه الروايات الصحيحة عبارات: أمروها بلا كيف ولله ضحك أو نزول، أو وجه، أو معية، أو حقو، لا يعرفه، أو لا نعرفها، أو لا نخوض فيها ونفوض علمها لله، أو استأثر الله بعلمه .

فهاهم أساطين من علماء الأمة رأيناهم كيف يؤولون وكيف يفهمون؟

الفصل الثاني

مناقشة أدلة مثبتي جهة الفوقية

تمهيد

إن مسألة الفوقية من المسائل التي كثر فيها الكلام لاسيما بين السلف والخلف، فالطابع العام للمدرسة السلفية هو جعل جهة الفوقية صفة لله داخلة تحت مسمى الصفات الخبرية عندهم، أما الخلف فيذهبون إلى أن الآيات التي تحمل معنى وجهة الفوقية لها تفسيرها الذي لا يتأتى عنه كون الفوقية صفة لله عز وجل بعدا عن الحس وفرارا من التشبيه، ولقد أردت – في إجمال بقدر المستطاع – أن أعيش مع هذه المسألة لأعرض رأي مثبتي هذه الصفة عن طريق تقرير أدلتهم ثم مناقشتها .

ولكن رأيت من باب لازم الفائدة أن أقدم في عجالة بالتعريف بمفهومي السلف والخلف على نحو ما يلي:-

أولا: السلف: لغة: يقال سلف يسلف سلفا وسلوفا بمعنى تقدم ولذا قيل السالف أي المتقدم، والسلفة الجماعة المتقدمون، قال الله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾[٨٤] ، قال الفراء " أي جعلناهم سلفا متقدمين ليتعظ بهم الآخرون" [٨٥].

واصطلاحا: تدور التعريفات حول الصحابة، والتابعين، وتابعيهم من أولي الأمانة والفضل، وإتباع الكتاب والسنة، وهذا مستفاد مما يلي :

- يقول الإمام الغزالي: " أعلم إن الحق الصريح الذي لا مراء فيه هو مذهب السلف أعني الصحابة والتابعين "[٨٦]

- ويقول الشيخ محمد بن أحمد السفاريني: " المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام – رضوان الله عليهم – وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد لهم بالإمامة وعرف عظم شأنه في الدين وتلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف "[٨٧]

فالسلف إذن يطلق على الأئمة المتقدمين من أصحاب القرون الأولى المشار إليها في قول النبي ﷺ: " خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته " (٨٨).

ثم صار هذا الاسم السلف علما ومصطلحا على كل متبع لمنهج السلف ، ونظرا لما كان للإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – من جهود وصبر ومصابرة في سبيل نصرة السنة لا سيما ضد القائلين بخلق القرآن فان أسمه ارتبط بهذا المذهب فإذا ذكر احد الاسمين: سلف، أو احمد بن حنبل كان ذكر الآخر لازما له ، ووصف – رحمه الله – بأنه إمام أهل السنة.

والطابع المنهجي العام لمذهب السلف إزاء مسالة المتشابهات هو الإيمان بها وتفويض معناها المراد لله مع تنزيهه عن ظواهرها المستحيلة في حقه تعالى.

ومنع بعض من رجالاتهم التأويل وأجازه البعض كما تم تفصيل هذا في الفصل الأول الذي سبق بيانه .

ثانيا: الخلف: لغة: يقال: أعطاك الله خلفا مما ذهب ويقال: خلف – بفتح اللام – للولد الصالح يبقى بعد أبيه ، إمام بسكون اللام خلف فيقال: " في الذرية الفاسدة، قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾ (٨٩). (٩٠)

واصطلاحا: هم الجماعة الذين مال مذهبهم إلى التأويل كمنهج في المتشابهات قرآنا وسنة بدافع تنزيه الحق سبحانه، ولمواجهة المشبهين والمجسمين ولهؤلاء جذورهم وأصولهم بين الصحابة والتابعين.

يقول الإمام السيوطي : " وذهبت طائفة من أهل السنة إلى إننا نؤولها – أي المتشابهات – على ما يليق بجلاله تعالى وهذا مذهب الخلف (٩١).

والسلف والخلف كلاهما في دائرة أهل السنة والجماعة، والمفوضون والمؤولون منهما على السواء يهدفون لغرض واحد هو تنزيه الحق سبحانه، فهذا قاسم مشترك بينهما.

وكلمة خلف بعد سلف إنما هي ترتيب زماني طبيعي.

المبحث الأول

الأدلة القرآنية لمثبتي جهة الفوقية ومناقشتها

استعنت بالله تعالى وجاهدت كي أتسلح بالحيدة أبان النظر في أدلة كل من المثبتين، والنافين جهة الفوقية لما لهذه المسألة من أهمية في الفكرين السلفي والخلفي، ولهذا آثرت أن أبدأ بعرض أدلة المثبتين معقباً عليها بما يتراءى لي من مناقشات، واتضح لي أن مثبتي صفة الفوقية يثبتونها في إطار إثبات الجهة ولذا قيل: الفوقية أي جهة الفوق ، فكلمة الجهة لا تعني الإطلاق ولكن تعني جهة الفوق خاصة، والله المستعان.

١.احتج القائلون بالجهة بقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [٩٢] بناء على ان مجاهد بن جبر ت ١٠٢ – رحمه الله – أول استوى بمعنى علا .

الرد: المعلوم إن مجاهد عندما سلك مسلك التأويل المذكور إنما قال بما يقول به الخلف والسلف لا يؤولون – في جملتهم – مثل هذا فلا يؤخذ منهج الخلف لإثبات شيء عند السلف على نحو ما هو مذكور.

٢.احتجوا بقوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [٩٣] قالوا: هذا تصريح بالصعود[٩٤].

الرد: نعم تصريح بالصعود ولكنه لا يعني إثبات الفوقية لان الصعود هنا بمعنى القبول، يقول عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) الكلام الطيب ذكر الله تعالى والعمل الصالح أد فرائضه فمن ذكر الله ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله.

ويقول الإمام البيهقي: " صعود الكلم الطيب والصدقة الطيبة إلى السماء عبارة عن حسن القبول "[٩٥].

وقال مجاهد – رحمه الله – العمل الصالح يرفع الكلم الطيب[٩٦] .

كما احتجوا كذلك في المقام نفسه بقول الله: ﴿ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾[٩٧]، وإضافة إلى ما قيل آنفاً من ردود نقول:

ذكر البيهقي: " أن عروج الملائكة يكون إلى مقامهم إلى السماء "[٩٨] .

ويقول ابن بطال[٩٩] ، وإنما أضاف المعارج إليه إضافة تشريف ومعنى الارتفاع إليه اعتلاؤه مع تنزيه المكان "[١٠٠] .

ويقول ابن الجوزي الحنبلي : " واحتج بعضهم بأنه على العرش بقوله: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ ، وبقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ [١٠١].

وجعلوا ذلك فوقية حسية ونسوا إن الفوقية الحسية أما أن تكون لجسم أو جوهر، وإن الفوقية قد تطلق لعلو المرتبة ، ثم انه كما قال تعالى: ﴿فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾ ، قال: [وهو معكم اين ما كنتم] "[١٠٢] مع مراعاة ان القول بعلو المرتبة تنفي كون جهة الفوقية صفة فتأمله .

٣.احتجوا بقوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [١٠٣] .

لقد اتفق المسلمون على انه لا يفهم من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى في جوف بمعنى السماء، وان السماوات تحصره وتحويه، والمثبتون للفوقية والجهة جعلوا في – هنا – بمعنى على واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾

[١٠٤] ، فالمعنى على جذوع النخل، كذلك قوله تعالى: (في السماء) أي: على العرش فوق السماء؛ لأن كل ما علا يقال له: " سماء "[١٠٥] .

الرد: لقد أولها ابن عباس حبر الأمة بقوله : " ء أمنتم عذاب من في السماء إن عصيتموه " .

وقيل: إشارة إلى جبريل وهو الملك الموكل بالعذاب .

" ويحتمل أن يكون المعنى ء أمنتم خالق من في السماء " ثم قال بعد هذا : " والأخبار في هذا الباب كثيرة صحيحة مشيرة إلى العلو لا يدفعها إلا ملحد أو جاهل معاند والمراد بها توقيره وتنزيهه عن السفل والتحت ووصفه بالعلو والعظمة لا بالمكان والجهات والحدود وإنما ترفع الأيدي إلى السماء بالدعاء لأنها مهبط الوحي ... واليها ترفع أعمال العباد كما جعل الله الكعبة قبلة الصلاة ، ولأنه – تعالى – خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان .. وهو الآن على ما عليه كان "[١٠٦].

وبهذا يرد على من قال بان الإمام القرطبي يثبت الجهة لله تعالى، وعلى هذا فإثبات جهة الفوقية من الآية المذكورة كصفة غير مفاد اللهم إلا إثبات فوقية العلو والرفعة والعظمة فهو سبحانه " العلي العظيم " .

٤ .واستدلوا كذلك بقوله تعالى: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [١٠٧] ، قالوا: " هذا دليل على إن موسى – عليه السلام – اخبر فرعون بان ربه في السماء ، فأراد فرعون أن يلتمس الأسباب للوصول إليه ثم عقب على ذلك بقوله: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، فلو كان موسى اخبر فرعون بأن ربه في كل مكان لطلبه في نفسه أو في بيته ولم يجهد في بنيان الصرح " ثم قالوا : من اثبت العلو – يقصدون جهة الفوق –فهو موسوي مجهي، ومن نفاه فهو فرعوني ضال "[١٠٨] .

الرد: إن من يتأمل هذا الكلام لا يجد فيه الدليل على إثبات جهة الفوقية لله عز وجل فان قول فرعون: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، لا يستفاد منه تحقيق إن موسى – عليه السلام – اخبر فرعون بان الله فوق السماء، وإنما يحكي القرآن إجابة موسى على سؤال فرعون كما يلي:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[١٠٩].

وكما نرى لا نجد فيها إخباراً بالفوقية، وهذه الأمثلة مما ذكره مثبتوا جهة الفوقية يقاس غيرها عليها ومنه قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾[١١٠] وهكذا.

المبحث الثاني

الأدلة السنية لمثبتي جهة الفوقية ومناقشتها

لقد ذكر مثبتو الفوقية جهة وصفة أدلة كثيرة من السنة نذكر بعضا منها كما يلي:

١- عن انس قال: (جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول: اتق الله وامسك عليك زوجك ، قالت عائشة لو كان رسول الله ﷺ كتم شيئا لكتم هذه ، قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات) وفي رواية التي بعدها : (كانت تقول : إن الله انكحني في السماء)[١١١].

وعليه فهم يثبتون الله جهة الفوق دون ما جهة أخرى .

الرد: إن السيدة زينب – رضي الله عنها – لا تقصد من كلامها إن الله تعالى موجود فوق العرش ، وإنما تقصد إن الأمر بزواجها جاء في كلام الله تعالى المنزل من اللوح المحفوظ الموجود فوق السموات ويؤيد هذه الرواية التي نقلها ابن حجر عن سلمة قالت: (قالت زينب: ما أنا كأحد من نساء النبي ﷺ إنهن زوجهن بالمهور، زوجهن الأولياء وأنا زوجني الله رسول الله ﷺ وانزل الله في الكتاب)[١١٢].

٢- روى مسلم في صحيحه من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: (كانت لي جارية ترعى غنما لي فانطلقت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة فصككتها صكه فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي فقلت إلا اعتقها ؟ قال ائتني بها فقال: أين الله تعالى ؟ قالت: في السماء، قال: من أنا ؟ قالت: رسول الله ﷺ، فقال اعتقها فإنها مؤمنة)[١١٣].

الرد: سبق القول عند ذكر قوله تعالى: ﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، ولكن ما يخص هذا الحديث – هنا – ما جاء في السنن الكبرى للبيهقي من ناحية اختلاف الرواة في لفظ الحديث مع أسانيد كل لفظ من ألفاظهم وهي : أين الله ؟ فقالت في السماء ، مع لفظ فإنها مؤمنة، وبدونه. وأين الله ؟ فأشارت إلى السماء ، ومن ربك ؟ قالت : الله ربي. ولتشهدين إن لا اله إلا الله ؟ قالت : نعم [١١٤].

وبأن عليه فان السؤالين من ربك ؟ ولتشهدين ؟ يعطيان احتمالية كبرى؛ لأن يكون لفظ أين قد جاء في الحديث من الرواية بالمعنى.

ويؤيد هذا التعليق الذي يقول فيه العلامة الكوثري :

" لم يصح عن النبي ﷺ في تلقين الإيمان طول أداء رسالته السؤال باين او ذكر ما يوهم المكان بل الثابت هو تلقين كلمة الشهادة "[١١٥].

زد عليه انه لو كان المقصود من الحديث بيان اينية الله ومكانه لكان بأصول الإيمان ولكن في مسلم جاء في باب تحريم الكلام في الصلاة ولم يخرجه في كتاب الإيمان .

هذا بالإضافة إلى ما يقوله ابن الجوزي من انه قد ثبت عند العلماء إن الله تعالى لا تحويه السماء ولا الأرض ولا ضمه الأقطار وإنما عرف بإشارتها تعظيم الخالق – ﷻ – عندها[١١٦].

٣- عن أبي هريرة إن النبي ﷺ قال: (ينزل ربنا – تبارك وتعالى – كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعوني فأستجب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فاغفر له ؟)[١١٧].

قالوا : " بان هذا تصريح بنزول المولى – عز وجل – كل ليلة الى سماء الدنيا والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل "[١١٨]

الرد :لو كان النزول لذاته حقيقة لتجددت له – سبحانه – كل ليلة إلى سماء الدنيا حركات عديدة تستوعب الليل كله؛ لأن ثلث الليل يتجدد على أهل الأرض شيئا فشيئا فيلزمه انتقال في سماء الدنيا ليلا ونهارا من قوم إلى قوم وعودة إلى عرشه في كل لحظة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وهذا هو السر الذي جعل رجلا كحماد بن زيد يسارع إلى تأويل النزول بمعنى إقباله سبحانه وتعالى على عباده كما سبق لنا بان هذا في فصل السابق ولما ذكر ابن حامد الحنبلي إن الله ينزل كمن مكانه الذي هو فيه وينتقل برئ منه الإمام احمد وتأذى الحنابلة بسوء كلام حامد واعتقاده.[١١٩] ولو قالوا نزول لا نعلمه لظلت الشبه عالقة حتى ولو قصد عدم تكليفه أما صرف اللفظ إلى ما يليق بجلال الله منهما فهو الأمل مثل هذا المقام .

ولو قيل: إن السلف جملة يجرون مثل يجرون مثل هذا على ما ورد ويؤمنون به إجمالا قيل: سبق بيان رأي الإمام ابن تيمية في مثل هذا وهو إن الوقوف على المعنى قرانا ومن ثم سنة من الأمور المتعينة ، ونقول كذلك : إن مجرد الإيمان على ما ورد مقبول وهو في الوقت نفسه لا يعطي النزاع عندما يتعدى هذا إلى ما ذكر ليفتح الباب ممهدا أمام المشبه والمجسمة .

٤- واستدلوا كذلك بحديث الإسراء على إن الفوقية حسية حيث جاء فيه (ثم فرضت علي الصلوات خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى فقال: بم أمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال: إن أماتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، واني والله جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل اشد المعالجة، فارجع إلى ربك فأساله التخفيف لامتك، فرجعت فوضع عني عشرا [١٢٠] ... الحديث). ففي الحديث (ارجع إلى ربك) و (فرجعت إلى ربي) وهذا يدل على الفوقية ، وفي كتابه زاد المعاد اعتمد ابن القيم على هذه الرواية ونقلها عنه شارح الطحاوية ، وفيها زيادة جملة (ثم عرج به إلى الجبار – جل علاه وتقدست أسماؤه – فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى) وفيها كذلك (فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار – تبارك وتعالى – وهو في مكانه) فهذه الزيادة لم تثبت لأنها عن طريق شريك بن عبد الله بن أبي تمر وشريك هذا ضعفه ابن حزم؛ لأجل حديثه في الإسراء .[١٢١] لاسميا عبارة (وهو في مكانه).

وروي هذا الحديث عن انس من غير طريق شعيب فلم تذكر فيه هذه الألفاظ مما يقوي إنها صادرة من جهة شريك [١٢٢].

ويروعنا – هنا – ما ذكره شارح الطحاوية في قوله:

" أما قوله تعالى: في سورة النجم ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ ﴾ فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الإسراء فان الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه ... أما الدنو والتدلي في حديث الإسراء فذلك صريح في انه دنو الرب تعالى "[١٢٣] ، فهذا تصريح بفوقية حسية وبغير دليل.

كما اعتمدوا على ما جاء في نونية ابن القيم والتي منها :

هذا وثالث عشر أخباره ---------- إنا نراه بجنة الحيوان

فسل المعطل هلى يرى من تحتنا ------ أم عن شمائلنا وعن إيمان

أم خلقنا وأمامنا سبحانه ---------- أم هلى يرى من فوقنا ببيان[١٢٤]

وينطلق شارح الطحاوية من هذا إلى القول : لا يتم إنكار الفوقية ألا بإنكار الرؤية مقررا بانا نرى الله من فوقنا[١٢٥] ويستدلون بحديث رواه جابر عن رسول الله وسلم يقل فيه (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار قد اشرف عليهم من فوقهم وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم [١٢٦]...) وهذا الحديث قد تكلم في سنده ، فان هذا الحديث جاء عن الفضل الرقاشي، وفيه يقول الذهبي : " أبو عصام العباداني عن الفضل الرقاشي يقال: اسمه عبد الله بن عبيد الله وقيل اسمه عبيد ليس بحجة يأتي بعجائب" .

وقال العقيل : " منكر الحديث " .

وقال احمد : " ضعيف " ، وقال ابن عيينة : كان يرى القدر (أي قدري) .

وقال سلام بن أبي مطيع لو إن فضلا الرقاشي ولد اخرس اللسان كان خيرا.[١٢٧]

وكما هو معلوم فالحديث الضعيف لا يستدل به في أمور العقيدة .

٥- واستدلوا بقول النبي ﷺ الذي رواه أبو هريرة وجاء فيه (إن ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارون [١٢٨] ، في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا: لا يا رسول الله قال، فإنكم ترونه كذلك) [١٢٩] . وكذلك حديث حرير بن عبد الله البجلي قال: (كنا جلوسا مع النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: إنكم سترون ربكم عينا كما ترون هذا لا تضامون [١٣٠] في رؤيته).[١٣١].

الرد: إن التشبيه في هذا الحديث لم يقع على كيفية الرؤية من فوق أو تحت ولكن وقع التشبيه في إن رؤية الله تعالى يوم ستكون واضحة تمام الوضوح كما نرى القمر ليلة البدر.

ويقول ابن قتيبة: لم يقع التشبيه فيها على حالات القمر من التدوير والمسير والحدود وغير ذلك وإنما وقع التشبيه في إن إدراكه يوم القيامة كإدراكنا القمر ليلة البدر ، لا يختلف في هذا ، والعرب تضرب بالقمر المثل في الشهرة والظهور[١٣٢]

٦- واستدلوا – كذلك – بحديث أبي رزين العقيلي – رضي الله عنه – إنه قال: (يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق العرش ؟ قال: كان في عماء فوق ماء وتحته هواء)[١٣٣]

وإسناد هذا الحديث ضعيف؛ لأن فه حماد بن سلمه وهو مختلط وعلي بن عطاء تفرد عن أبي رزين[١٣٤] ومع هذا وجدنا من العلماء من راح يلتمس له تأويلا ينزه به الله عن صفات المخلوقين، ومن هولاء الإمام ابن الجوزي الحنبلي الذي يقول:

" العلماء : السحاب واعلم إن الفوق والتحت يرجعان إلى السحاب لا إلى الله تعالى، وفي بمعنى فوق، والمعنى : كان فوق السحاب بالتدبير والقهر، ولما القوم يأنسون بالمخلوقات سألوا عنها، والسحاب من جملة خلقه ، ولو سئل عما قيل السحاب لأخبر إن الله تعالى: (كان ولا شيء معه)، كما روي عن رسول الله ﷺ انه قال: (كان الله ولا شيء معه) ولا نختلف إن الجبار تعالى لا يعلوه شيء من خلقه بحال، وإنه لا يحل في الأشياء بنفسه ولا يزول عنها؛ لأنه لو حل بها كان منها ولو زال عنها لنأى عنها [١٣٥]

٧- كما استدلوا بالحديث الذي رواه جبير بن مطعم بن عبد المناف القرشي الذي اسلم في فتح مكة ويقول فيه :

(جاء اعرابي الى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله نهكت الانفس وجاع العيال وهلكت الاموال، استسق لنا ربنا فانا نستشفع بالله عليك وبك على الله تعالى ، فقال النبي ﷺ سبحان الله ، سبحان الله ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه اصحابه فقال : ويحك اتدري ما الله ؟ ان شانه اعظم من ذلك انه لا يستشفع به على احد انه

لفوق سماواته على عرشه وانه عليه لهكذا ، واشار بيده مثل القبة ، وانه ليئط به اطيط الرحل بالراكب "[١٣٦].

وفي رواية : (إن عرشه على سماواته هكذا وأشار بإصبعه مثل القبة عليه).

الرد: نلحظ انه في الرواية الأولى وقع التشبيه بالقبة على الله تعالى، أما في الرواية الثانية فالتشبيه وقع على العرش والصحيح منها الرواية الثانية كما جاء في كلام أبي داود حيث قال " والحديث بإسناد احمد بن سعيد هو الصحيح ووافقه عليه الجماعة "[١٣٧] يقصد الرواية الثانية .

أما الرواية الاولى فضعيفة لوجود جبير بين محمد بن جبير بن مطعم في السند وهو مجهول وفيه عنعة محمد بن إسحاق وهو مدلس.[١٣٨].

كما يقول البيهقي في نقده للرواية الأولى: " وهذا حديث ينفرد به محمد بن إسحاق بن يسار عن يعقوب بن عتبة، وصاحبا لصحيح لم يحتجا به.

وذكره البخاري في الشواهد ذكرا من غير رواية، وكان مالك بن انس لا يرضاه، ويحيى بن سعيد القطان لا يروي عنه، ويحيى بن معين يقول ليس بحجة، واحمد بن حنبل يقول : يكتب عنه هذه الأحاديث – يعني المغازي ونحوها – فإذا جاء الحلال والحرام أردنا قوما هكذا – يريد أقوى منه – فإذا كان لا يحتاج به في الحلال والحرام فأولى أن لا يحتج به في صفات الله – سبحانه وتعالى – وإنما نقموا عليه في روايته عن أهل الكتاب ثم عن ضعفاء الناس، وتدليسه اساميهم"[١٣٩].

وشيء طبيعي بعد هذا الحشد من الأقوال الكثيرة التي ذكرها الإمام البيقهي أن لا يحتاج بالرواية الأولى .

زد عليه أن أبا سليمان الخطابي يقول : " هذا الكلام إذا اجري على ظاهره كان فيه نوع من الكيفية والكيفية عن الله تعالى، وعن صفاته منفية، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله – سبحانه – وقصد به إفهام المسائل من حيث يدركه فمه إذا كان إعرابيا لا علم له لمعنى ما دق من كلام وما لطف منه عن الإدراك الإفهام ".

ويواصل الشيخ الخطابي بيان ما أظنه أحوج ما يكون إلى بيان في حديث الذي معنا فيقول : " انه ليئط به : انه ليعجز عن جلاله وعظمته حتى يئط به ، إذ كان معلوما إن اطيط الرحل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه ولعجزه عن احتماله فقرر بهذا النوع من التمثيل عنده معنى عظمة الله وجلاله، وارتفاع عرشه ليعلم إن الموصوف بعلو الشأن وجلالة القدر وفخامة الذكر لا يجعل شفيعا إلى من هو دونه في القدر وأسفل منه في الدرجة وتعالى الله أن يكون مشبها بشيء أو مكيفا بصورة خلق أو مدركا بحس، ليس شيء وهو السميع البصير " (١٤٠).

وهكذا : فقد ثبت من خلال ما تم عرضه وبيانه إن الله سبحانه منزه عن الاتصاف بجهة الفوق أي الفوقية الحسية وان ما جاء من ألفاظ في القران أو السنة تحمل مثل هذا ظاهر إنما هي في الحقيقة مشيرة لعلو مرتبة الحق سبحانه ورفعته وعظمته .

زد على هذا انه سبحانه " لو كان في جهة لزم قدم المكان أو الجهة ومعلومة إنه لا قديم إلا الله ، وكيف لا يكون كذلك والأمكنة والجهات من خلفه " .

ولو قال أهل الجهة: إنه سبحانه " إما داخل في العالم، أو خارج العالم، أو لا داخله ولا خارجه، والثالث خروج عن المعقول وعما تقتضيه بداهة العقل: كان الجواب انه لا داخل ولا خارج وهذا – أي ثالث – خروج عن الموهوم دون المعقول "(١٤١) بمعنى إن الله سبحانه فوق هذا الحصر الثلاثي العقل فكنهه لا تحيط به العقول.

الخاتمة

لقد تبين لنا مما سبق عرضه ما يلي :

أولا: إن المسلك التأويلي في متشابه أي القرآن الكريم والسنة المطهرة قد أدى دوره الفعال ضد أعداء الإسلام الذين أثاروا قضايا عقدية كثيرة – لا تخفى على دارس – قديما في صورة المجسمين وغيرهم وحديثا فيما قاله المستشرقون .

ثانيا: أن مجيئ المتشابهات في القرآن الكريم كان من الدواعي لإعمال العقل الإسلامي في النظر إلى ما في القرآن من معاني تدق على الإفهام ومن ثم يكون التفاضل للناظرين على المقلدين، وللراسخين في العلم على غيرهم من الناس الذين لم يحذوا حذوهم الأمر الذي من خلاله تبرز إحدى نقاط تفضيل العالم على الجاهل بالإضافة إلى أثراء العقلية الإسلامية .

ثالثا: أصبح وأمسى انه لا مكان لمن يقول أن ما ورد في القرآن الكريم من آيات متشابهات – وهي كثيرة – وكذلك في سنة رسول الله ﷺ لها معان خافية علينا لا نبحث فيها بل نتوقف ونفوض علم معناها لله ، فان مثل هذا القول يتعارض وبقوة مع قول الله تعالى : ((كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الألباب)) وهذا هو الذي أدى بإمام كبير كابن تيمية – رحمه الله – إلى أن يبين لنا إن القرآن والسنة المطهرة لم يرد فيهما نهي عن تدبر آيات من القرآن الكريم.

رابعا: إن الإمام أبن تيمية في الوقت الذي انتهج فيه منهج التأويل بمعنى أنه يرجعه إلى ما تؤول إليه الأمور وفي الوقت الذي ذكر إن القسم الثالث من التأويل موجود عند الفرق الإسلامية وينقسم إلى قسمين مذموم ومحمود – كما تقدم بيانه – فإننا رأيناه يدافع عن التأويل مطلقا في تأويل قوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ ، حيث قال الوجه هنا بمعنى ما أريد به جهة الله تعالى، الأمر الذي أدى بنا ومن خلال نماذج أخرى عنده كذلك أن نتكلم عنه تحت عنوان " ابن تيمية من أنصار التأويل" .

خامسا : اتضح لنا أن كبار علماء السلف قد سلكوا مسلك التأويل كذلك وهذا يبين لنا أنهم عندما يذمون التأويل ويقفون في وجهه إنما يقصدون به، وبالدرجة الأولى التأويل المذموم الذي يبعد عن روح الآية القرآنية، أو الحديث الشريف .

سادسا : تبين لنا كذلك من خلال المناقشة في صفة جهة الفوق لله تعالى إن الذين قالوا بها مستدلين بقرآن وسنة إنما تقع استدلالاتهم في دائرة الاحتمال ليس إلا الأمر الذي يجعلنا نقول إن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال ومجرد احتمالية الدليل لا يعول عليها في مقام إثبات صفة كهذه لله تعالى فهو سبحانه متعال في عليائه وكبريائه، فهو العلي العظيم، ويلفت النظر في هذا أن عددا غير قليل من رجالات السلف قد أولوا كثيرا من الآيات او الاحاديث التي يوهم ظاهرها وصف الله بجهة الفوقية تأويلا يليق بذاته

سبحانه انطلاقا من قوله عز وجل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾.

سابعا: لا يفوتنا في هذا المقام أن نقول إن من أبرز الأدلة لإثبات جهة الفوقية عند من يقولون بها هو قوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾، قالوا – كما تقدم – إن في هنا بمعنى على فرارا من فساد المعنى الظاهر إذا ظلت في على ظاهرها حيث إن المظروفية حالتئذ تستحيل في حق الله تعالى، وجريا على كلامهم، وقياسهم على منهجهم نقول على السماء هي الأخرى على ظاهرها تؤدي إلى ما تم الهروب منه؛ لأنها تشير إلى فوقية حسية رب العزة منزه عنها ، ثم في الوقت الذي لجئوا فيه سريعا إلى القول بأن في معنى على؛ لأن السماوات محال أن تحصره سبحانه فلماذا قالوا في قول المصطفى ﷺ: (ينزل ربنا إلى سماء الدنيا .... الحديث)،

إنه نزول غير مؤول أليس نزوله إلى السماء مساو تماما لقوله تعالى: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، فلماذا فروا من الأولى، ومنعوا الأخرى، ثم أليس القول بأن له سبحانه نزول إلى السماء لا نعرف معناه يؤدي في النهاية إلى إن السماء تحتوي ذات الله تعالى وبطريقة لا نعلم معناها كذلك؛ لينتج هذا نهاية إن السماء ظرف للذات المقدسة تنزه الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا.

وكما سبق بيانه فإن هذا هو السر كذلك في أن بعضا من رجال السلف بادروا ببيان، وتأويل إن النزول هنا بمعنى إقباله على عباده.

نسأل الله الرشد والصواب ،،

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى أله وصحبه أجمعين، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ،،

قائمة المراجع

** **القرآن الكريم**

أولاً: التفاسير

١- تفسير القرآن الكريم لابن كثير

٢- التفسير الكبير لابن تيمية

٣- التفسير الكبير الرازي

٤- تفسير المنار للسيد رشيد رضا

٥- جامع البيان عن تأويل أي القران للطبري " محمد بن جرير "

٦- الجامع لأحكام القرآن للطبري "محمد بن جرير "

٧- الجواهر الإحسان في تفسير القرآن للثعالبي عبد الرحمن بن محمد الجزائري

٨- المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز لابن عطية أبو محمد عبدالحق الأندلسي

ثانياً: كتب السنة

٩- صحيح الإمام البخاري

١٠- صحيح الإمام مسلم

١١- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي)

١٢- سنن أبي داود

١٣- سنن الترمذي

١٤- سنن ابن ماجه

١٥- شرح مسلم للنووي

١٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر

١٧- مسند الإمام أحمد

ثالثاً: مصادر ومراجع أخرى

١٨- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي

الملخص:

الحمد لله رب العالمين **[{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَاب}، [البقرة:٢٦٩]** .

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله، الذي أيده ربه بالحكمة البالغة والحجة الدامغة فأدى الأمانة، وهدى الأمة، وكشف الغمة، وبلغ الرسالة وتمم مكارم الأخلاق (ﷺ) وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه وهديه الى يوم الدين.

وبعد :

فهذا بحث تحت عنوان (جهة الفوقية بين المثبتين والنافين تحليل ونقد) أردت من خلاله أن أعيش مع أدلة مثبتي جهة الفوقية بمعنى جهة الفوق لله سبحانه ثم مناقشتها، وكذلك مع أدلة النافين، ولا شك أن الضرورة البحثية تقتضي أن يكون الطريق إلى هذا هو بين التأويل عند مثبتيه ومنكريه، حيث إن القائلين بجهة الفوقية ينكرون تأويل الآيات والأحاديث المتعلقة بهذا، أما النافون فإنهم يقولون بالتأويل .

ونعرض هذا كله مسبوقاً بتمهيد فيه نلقي الضوء على المحكم والمتشابه ثم نبين بعضاً من حكم ورود المتشابه في القرآن الكريم ومن ثم في سنة المصطفى (ﷺ).

هذا ولقد جاهدت نفسي لأتسلح بالحيدة التامة تجاه هاتين المسألتين اللتين تعدان بحق من المسائل الهامة التي يدور فيها خلاف في وجهات النظر لا سيما بين المدرستين السلفية والخلفية في الفكر الإسلامي، والذي جعلني أخوض غمار هذا المسلك الشائك ما اتضح لي وضوحاً كاملاً من إن الفريقين سلفاً وخلفاً إنما يهدفان إلى شيء واحد هو بيان الجانب التنزيهي للحق سبحانه فهذا قاسم مشترك بين الجميع والله أسأل أن تحظى هذه النظرة البحثية بتوفيقه سبحانه وأن يهبها جانب الصواب .

إنه على ما يشاء قدير

الهوامش:

(١) البقرة "٧٠" .

(٢) الزمر "٢٣" .

(٣) يراجع لسان العرب لابن منظور مادة " شبه "

(٤) التفسير الكبير عند تفسير قوله تعالى [منه آيات محكمات هن أم الكتاب ..] آل عمران "٧" .

(٥) مناهل العرفان في علوم القرآن ، ج٢ ، ص٢٧٥-٢٧٦ .

(٦) هو عبد الرحمن بن محمد الثعالبي الجزائري مفسر وفقيه وصوفي ، توفي سنة ٨٧٥ هـ ، راجع معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، ج٥ ، ص١٩٥ .

(٧)الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، ج١ ، ص٢٤٣ .

(٨) الفجر "٢٢" .

(٩) الصافات "٢٤" .

(١٠) الرحمن "٣٩" .

(١١) تأويل مشكل القرآن ص١٠٢

(١٢) التحبير في علم التفسير ص٢٢١.

(١٣) هود " ١ "

(١٤) الزمر " ٢٣ "

(١٥) آل عمران : "٧ "

(١٦) النساء " ٨٢"

(١٧) مناهل العرفانج٢ ص٢٧١.

(١٨) البرهان في علوم القرآن، ج ٢ ص ٥٧ ، وتفسير الرازي، ج٧ ص٩٠.

(١٩) تفسير الرازي، ج٧ ص٨٩ مطبعة دار الغد .

(٢٠) سورة آل عمران " ١٤٢ "

(٢٢) سورة الزمر " ٩ "

(٢٢) رواه البخاري في كتاب العلم .

(٢٣) مسند الإمام احمد ج٥ ص ١٩٦.

(٢٤) التفسير الكبير للرازي ج٢٠ ص٣٩٧.

(٢٥) تفسير المنار ج٣ ص١٧.

(٢٦) يراجع لسان العرب مادة " أول "

(٢٧) ينظر: د. محمد الذهبي والمفسرون ، ج١ ، ص١٧ .

(٢٨) رواه البخاري في باب التسبيح والدعاء في السجود أخرجه مسلم في باب ما يقال في الركوع والسجود .

(٣٠) النصر " ٣ "

(٣٠) التفسير الكبير ، لابن تيمية ، ج٢ ، ص١٠٦ – ١١١

(٣١) المصدر نفسه

(٣٢) معالم السنن ٣٣١.

(٣٣) يراجع كل من : تفسير ابن عطية ، ج٣ ، القرطبي ، ج٤٠ ، ص١٦ ، والطبري ، ج٣ ، ص١٨٢.

(٣٤) تفسير الرازي ، ج٢ ، ص٤٠١.

(٣٥) القاضي عبد الجبار المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ج١٦ ، ص٣٨٧.

(٣٦) تفسير ابن عطية ج٣ ، ص٢٧ .

(٣٧) القيامة ٢٢،٢٣

(٣٨) البرهان في العلوم القران، ج٢ ، ص٧٣ . ومثله في مشكل القرآن لابن قتيبة، ص١٠٠ .

(٣٩) تفسر الرازي عند الآية الكريمة المذكورة، (٦) ج١ ص٥٤.

(٤٠) ج١ ، ص٣٧٨.

(٤١) هو صبيغ بن عسل بن سهيل الحنظلي، يراجع الإصابة في تمييز الصحابة، ج٢ ، ص١٩٨.

(٤٢) تفسير القرطبي، ج٤ ، ص١٥ .

(٤٣) رواه الخاري في كتاب التفسير ، ورواه مسلم في كتاب العلم .

(٤٤) نص الحديث كما تقدم هو " فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فأحذرهم".

(٤٥) التفسير الكبير، ج٧ ،٤٧٦ .

(٤٦) هو مجاهد بن جبير مولى قيس المخزومي ، روي عن ابن عباس فأكثر ، توفي سنة ١٠٢ وهو ساجد ، يراجع الطبقات الكبرى لابن سعد، ج٥ ص٤٦٦ .

(٤٧) هو محمد بن الحسن بن فورك الانصار الشافعي ، متكلم فقيه مفسر، توفي سنة ٤٠٦ هـ ، راجع معجم المؤلفين رضا كحالة، ج٩ ، ص٢٠٨.

(٤٨) هو عثمان بن عمر الكردي المالكي ، ولد سنة ٥٧٠ باسنا بصعيد مصر وتوفي بالاسكندرية سنة ٤٦٤، معجم المؤلفين، ج٦ ص٢٦٠٥.

(٤٩) يراجع في هذا تفسير ابن عطية، ج ص٢٤ ، والإتقان للسيوطي، ج٢ص٣ ، وتفسير المنار، ج٣ ص١٧٦، وشرح مسلم للنووي، ج١٦ ص٢١٨

(٥٠) التفسير الكبير لابن تيمية، ج٧ ص٤٦٥ وتفسير ابن كثير، ج١ ص٣٤٧ .

(٥١) البخاري في باب وضع الماء عند الخلاء ، ومسلم في باب ابن عباس .

(٥٢) عبد الله بن حبي الكوفي ، مقرئ الكوفة ، ولد في حياة النبي صلى الل عليه وسلم وتوفي سنة ٩٤هـ ، راجع سير اعلام النبلاء ، ج٤ ، ص٢٦٧.

(٥٣) تفسير ابن تيمية، ج٧ ، ص٤٦٩.

(٥٤) سورة ص " ٢٩"

(٥٥) تفسير ابن تيمية، ج٧ ، ص٤٦٩.

(٥٦) تأويل مشكل القران، ص١٠٠.

(٥٧) البرهان في علوم القران، ج٢ ، ص٧٣.

(٥٨) المغني، ج٦ ، ص٣٨٧.

(٥٩) تفسير الرازي عند تفسير آية آل عمران رقم ٧

(٦١) الحديد، الآية ٤ .

(٦١) الرحمن ، الآية ١٩ .

(٦٢) الرحمن ، الآية ٢٢ .

(٦٣) تفسير ابن تيمية ، ج٦ ، ص٣٩٥.

(٦٤) تفسير ابن تيمية ، ج٦ ، ص٣٩٦-٣٩٧

(٦٥) نفسه ، ج٧ ، ص٤٩٣-٤٩٤.

(٦٦) نفسه ، ج٢ ، ص١٣٣.

(٦٧) الحديد "٤".

(٦٨) الحقو ما نحت الخاصرة ويطلق على الازرار .

(٦٩) رواه البخاري في كتاب التفسير .

(٧٠) اقاويل الثقات لزين الدين الكرمي ، ص١٨٤.

(٧١) الفجر " ٢٢ "

(٧٢) النحل "٣٢"

(٧٣) الأسماء والصفات للبيهقي ، ص٢٣٢.

(٧٤) القصص " ٨٨"

(٧٥) ينظر مجموع الفتاوي ، ج٢ ، ص٤٢٨.

(٧٦) الليل "٢٠"

(٧٧) البقرة " ١١٥"

(٧٨)الأسماء والصفات ص ٣٠٩.

(٧٩) راجع تذكرة الحافظ للذهبي .

(٨٠) رواه البخاري في كتاب التهجد .

(٨١) الأسماء والصفات ، ص٤٥٦.

(83)رواه البخاري في مناقب الأنصار

(٨٤) فتح الباري لابن حجر ، ج٧، ص٨٢

(٨٤) الزخرف ، الآية ٥٦ .

(٨٥) لسان العرب مادة " سلف".

(٨٦)الجام العوام عن علم الكلام ، ص٦١ ضمن مجموعة رسائل للإمام الغزالي .

(٨٧)لوامع الأنوار البهية وسواطع الاسرار الأثرية ، ج١ ، ص٢٠ .

(٨٨)رواه البخاري في كتاب الشهادات .

(٨٩)سورة مريم ، الآية ٥٩ .

(٩٠)لسان العرب خلف .

(٩١)الإتقان وعلوم القرن ، ج٢ ، ص٦ .

(٩٢) طه "٥" .

(٩٣) فاطر "١٠" .

(٩٤) راجع شرح العقيدة لابن أبي العز الحنفي ، ج٢ ، ص٣٨١ .

(٩٥)راجع الأسماء والصفات للبيهقي ، ص٤٢٦ .

(٩٦)فتح الباري شرح صحيح البخاري ، ج٢٨ ، ص١٩٨ .

(٩٧) سورة المعارج "٤" .

(٩٨)الأسماء والصفات ، ص٤٢٦ .

(٩٩)علي بن بطال البكري القرطبي المالكي ، أحد شراح صحيح البخاري ، راجع معجم المؤلفين ، ج٧ ، ص٨٧ .

(١٠٠)فتح الباري ، ج٢٨ ، ص١٩٨ .

(١٠١)الأنعام "٦١" .

(١٠٢)راجع دفع شبه التشبيه ، ص٢٣ .
(١٠٣) الملك "١٦" .
(١٠٤) طه "٧١" .
(١٠٥) الأسماء والصفات ، ص٤٢١ .
(١٠٦)تفسير القرطبي ، ج٧ ، ص٢١٦ .
(١٠٧)غافر " ٣٦ ، ٣٧ " .
(١٠٨) ينظر ابن قائد النجدي ، نجاة الخلف في اعتقاد السلف ، ص٧٦ .
(١٠٩)الشعراء الآيات من " ٢٣ إلى ٢٨ " .
(١١٠) النحل "٥٠" .
(١١١) رواه البخاري في كتاب التوحيد .
(١١٢) فتح الباري ، ج٢٨ ، ص١٩٣ .
(١١٣) في كتاب المساجد.
(١١٤) د٧ ، ص٤٢٢.
(١١٥) راجع تعليقه على كتاب الصقيل في الرد على ابن زفيل لتقي الدين السبكي ص ٩٤.
(١١٦) دفع شبه التشبيه ، ص٤٣.
(١١٧) رواه البخاري في كتاب التهجد ، ورواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين .
(١١٨) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ، ج٢ ، ص٣٨٤، وكذلك نونية ابن القيم شرح احمد بن ابراهيم عيسى ، ص٤١٢.
(١١٩) راجع الدين الخالص إرشاد الخلق إلى الدين الحق ، محمود السبكي ، ج ١، ص٦٦.
(١٢٠) رواه البخاري باب المعراج .
(١٢١) راجع تذكرة الحفاظ للذهبي ، ص٢٣٢ وكذلك ميزان الاعتدال له كذلك ، ج٢ ، ص٢٦٩.
(١٢٢) انظر تعليق الأستاذ شعيب الانؤوط على شرح العقيدة الطحاوية ، ج١ ، ص٢٧٦.
(١٢٣) ج ، ص٢٧٦.
(١٢٤) شرح نونية ابن القيم ، ج١، ص٤٢٥.
(١٢٥) ج٢ ، ص٣٨٦.
(١٢٦) رواه ابن ماجة في ننه تحت رقم ١٨٤ ، ج١ ، ص٦٥.
(١٢٧) راجع ميزان الاعتدال ج ٤ ، ص٥٤٣ ، و ج٣ ص٣٥٦.
(١٢٨) هل تجادلون .

(١٢٩) رواه البخاري في كتاب التوحيد، ومسلم في كتاب الإيمان .

(١٣٠) أي لا ينالكم تعب أو ظلم فيراه بعضكم دون بعض بان يدفعه عن الرؤية أو يستأثر بها بل تشتركون في الرؤية ، راجع اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، ترتيب محمد فؤاد عبد الباقي ، ج١ ، ص١٢٢.

(١٣١) رواه البخاري في كتاب المواقيت ومسلم في كتاب الساجد .

(١٣٢) تأويل مختلف الحديث ، ص١٣٦.

(١٣٣) رواه احمد في مسنده ، ج٤ ، ص١١.

(١٣٤) انظر تعليق زاهد الكوثري على كتاب الأسماء والصفات ص٤٠٧ وكذلك تعليق شعيب الارنؤوط على كتاب اقاويل الثقات ، ص ٨٨.

(١٣٥)دفع شبه التشبيه ص٤٣.

(١٣٦) رواه أبو داوود في سننه ج٤ ، ص٢٣٢.

(١٣٧) الاسماء والصفات ، ص٤١٨ .

(١٣٨)راجع تعليق شعيب الارنؤوط على كتاب اقويل ، ص٨٣.

(١٣٩) الأسماء والصفات ، ص٤١٧.

(١٤٠) نفسه ٤١٩.

(١٤١) شرح الموافق للجرجاني، الموقف الخامس ، ص٣٧ ، تحقيق د. حمد المهدي .